

الرسالة الثالثة

قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ

[آل عمران : ١٦٥]

عبد الغني بن سائر المجلد

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن عنوان هذا الموضوع جزء من آية كريمة نزلت مع ما قبلها وما بعدها في غزوة أحد الشهيرة ، والتي أصاب المسلمين فيها ما أصابهم من القرع الشديد ؛ حيث قُتل فيها سبعون من الصحابة ، وجُرح الرسول الكريم ﷺ ، وشُجَّ وجهه الشريف ، وانكسرت ربايعته ﷺ ، وهذه الآية واحدة من ثمانين آية نزلت في سياق الغزوة في سورة آل عمران ، وفي هذه الآيات من العبر والدروس الشيء العظيم ، ونكتفي في موضوعنا هذا بالآية المذكور جزء منها في عنواننا هذا ؛ حيث يقول الله تعالى : ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أَنِى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] .

وقد جاءت هذه الآية تعقياً على سؤال سألها أصحاب محمد ﷺ عن سبب الهزيمة التي حلت بهم ، وجواباً لاستغرابهم القرع الشديد الذي أصابهم وهم المسلمون وقائدهم سيد البشر ، وحبيب الرحمن محمد ﷺ ، وعدوهم

المشركون المشاقون لله وللرسول ، فجاءهم الجواب من العليم الخبير العزيز الحكيم أنهم أتوا من عند أنفسهم ، وبسبب ذنوبهم وقد قدر الله عز وجل هذه المصيبة ، لحكم أخرى ذكرتها الآية التالية لهذه الآية ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٦ ، ١٦٧] .

قال الإمام الشوكاني رحمه الله حول قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ... ﴾ الآية :

«الألف للاستفهام بقصد التقريع ، والواو للعطف . والمصيبة : للغلبة والقتل الذي أصيبوا به يوم أحد . ﴿ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا ﴾ يوم بدر ؛ وذلك أن الذين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعون ، وقد كانوا قتلوا يوم بدر من المشركين سبعين وأسروا سبعين ، فكان مجموع القتلى والأسرى يوم بدر مثلي القتلى من المسلمين يوم أحد .

والمعنى : أحين أصابكم من المشركين نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم وقلتم : من أين أصابنا هذا ؟ ، ونحن نقاتل في سبيل الله ، ومعنا رسول الله ﷺ ، وقد وعدنا الله بالنصر عليهم .

وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بأن يجيب عن سؤالهم بهذا الجواب ؛ أي هذا الذي سألتهم عنه هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم به الرسول ﷺ من لزوم المكان الذي عينه لهم ، وعدم مفارقتهم له على كل حال .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ خروجهم من المدينة ، وقيل : هو اختيارهم الفداء يوم بدر على القتل . اهـ .
ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه الآية بقوله :

« لقد كتب الله عز وجل على نفسه النصر لأوليائه حملة رايته ، وأصحاب عقيدته ، ولكن علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم ، وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيمهم ، وسلوكهم ، وباستكمال العدة التي في طاقتهم ، وبذل الجهد الذي في وسعهم ، فهذه سنة الله ، وسنة الله لا تحابي أحداً .

فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور ، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير ؛ فإن كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن ، وإبطال النواميس ؛ وإنما هم مسلمون ؛ لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس .

ولكن كونهم مسلمين لا يذهب هدرأ ، كذلك ، ولا يضيع هباءً ؛ فإن استسلامهم لله وحملهم الراية وعزمهم على طاعته ، والتزام منهجه - من شأنه أن يرد أخطاءهم وتقصيرهم خيراً وبركة في النهاية ، بعد استيفاء ما يترتب عليها من التضحية والألم والقرح ، وأن يجعل من الأخطاء وتناجها دروساً وتجارب تزيد من نقاء العقيدة ، وتمحيص القلوب ، وتطهير الصفوف ، وتؤهل للنصر الموعود ، تنتهي بالخير والبركة ، ولا تطرد المسلمين من كنف الله ورعايته ، بل تدهم بزاد الطريق ، مهما يمسه من القرح والألم والضيق أثناء الطريق .

وبهذا الوضوح والصراحة معاً يأخذ الله الجماعة المسلمة ، وهو يرد على تساؤلها ودهشتها مما وقع ، ويكشف عن السبب القريب من أفعالها : ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّنِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، أنفسكم هي التي تخلخلت وفشلت وتنازعت في الأمر ﴿ حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ فأنفسكم هي التي أخلت بشرط الله وشرط رسوله ﷺ ، وأنفسكم هي التي خالجه الهواجس والأطماع ، وأنفسكم هي التي عصت أمر رسول الله ﷺ ﴿ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾ ؛ فهذا الذي تستنكرون أن يقع لكم وتقولون : كيف هذا ؟ ، هو من عند أنفسكم بانطباق سنن الله عز وجل عليكم حين عرضتم أنفسكم لها « اهـ

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] ، ومعنى هذه الآية من الوضوح بحيث لا يحتاج معه إلى توضيح وتفسير .

ويقول الله عز وجل : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية :

« يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ » [الرعد : ١١] اهـ .

وقال صاحب الظلال رحمه الله حول نفس هذه الآية :

« إنه من جانب يقرر عدل الله عز وجل في معاملة العباد ، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ، ويبدلوا سلوكهم ، ويقلبوا أوضاعهم ، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختيار ، من النعمة التي لم يقدروها ويشكروها .

ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري ، عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ، ويحصل التغيير القدري في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم ، وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم ، ومن جانب ثالث يلقي تبعة عظيمة - تقابل التكريم العظيم - على هذا الكائن ، فهو يملك أن يستبقي نعمة الله عليه ، ويملك أن يزداد عليها إذا هو عرف فشكر ، كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر وانحرفت نواياه ، فانحرفت خطاه » اهـ .

أهمية الموضوع

ومن هذا الاستعراض العام لمفهوم هذه الآيات يتبين لنا خطورة العوائق الداخلية في أنفسنا ، والتي لها دور كبير في حصول المصائب الفردية والجماعية ، فنحن المسلمين اليوم كثيراً ما نلقي أسباب هزائنا وتأخرنا عن غيرنا على العوائق الخارجية كالغزو الفكري ، وكيد الكفار والمفسدين .

ولا شك أن للعوائق الخارجية دوراً في مصائبنا ، لكنها لم تكن لتؤدي دورها لو أصلحنا ما بأنفسنا ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٠] ، فما كان لكيد الأعداء الخارجيين أثر لو صبرنا واثقينا الله عز وجل وحاربنا عدونا الداخلي الذي بين جوارحنا ، كما قال أحد الدعاة - رحمه الله تعالى - تلك المقولة الحكيمة : « أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم في أرضكم » .

إن الاهتمام بإزالة العوائق الداخلية ، جزء أساسي من اهتمامنا بتوفير شروط الانتصار على العوائق الخارجية ، التي تحاول منع تحركنا نحو أهدافنا .

إننا معشر الدعاة كثيراً ما ننسى أنفسنا ، ونحن ندعو الناس ؛ حيث نجعل أكثر همنا في الآخرين ، والتفتيش عن عيوبهم ونقدهم ، وفي هذه الرحمة ينسى أو يتناسى الإنسان نفسه ، وما فيها من الأمراض والمخالفات التي قد تفتك به في يوم من الأيام ، وإن نسيان النفس والحرص على إصلاحها والوقوف على سيئاتها ، علامة خطيرة يخشى على صاحبها أن يقع

تحت قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

وعندما نطرح مثل هذا الموضوع ؛ فإننا نحتاج في ذلك إلى قومة لله عز وجل صادقة ، ووقفه شجاعة مع أنفسنا ، لنفتش وننقب في أعمالنا الظاهرة والباطنة ، وسنجد وللأسف - كما سيتبين - أشياء وأشياء ، لولا ستر الله عز وجل ورحمته لما قبل الناس منا كلمة واحدة .

وقبل أن نستعرض هذه الأمراض والمثالب الموجودة في حياة بعضنا ، أنبه إلى ملاحظة مهمة : وهي أن نتبه لخطر الشيطان ومدخله ونحن نطرح مثل هذه المواضيع ؛ لئلا يدخل علينا مدخلاً آخر فيزيد الطين بلة كما يقال .

وذلك لأنه قد نجد بعد طرح هذه المخاطر أننا أو بعضنا واقعون في بعضها أو أكثرها ، وهنا ينبغي ألا ندع للشيطان فرصة ولا مدخلاً علينا ليحطم نفوسنا ، وييث اليأس فيها محاولاً القضاء على ما فيها من خير بقوله لمن هذه حاله : أنت لست على مستوى الدعوة ، ولا على مستوى من يدعو إلى الله ، ويمثل الإسلام ، وأنت منافق ، وأنت وأنت . . . فيزداد بذلك انحرافاً ، وبعداً عن الخير ، وأهله . فالحذر الحذر من هذا المزلق والمدخل الخطير .

والمقصود من طرح هذا الموضوع هو تنبيه الغافل ، وتذكير الناسي إلى ضرورة الرجوع إلى النفس ، ومحاسبتها وتفقدتها ، وأن نتذكر أثر الخلل الداخلي في مصائبنا أفراداً وجماعات ، لعلنا نقوم من عثرتنا ، ونصلح فساد قلوبنا وأخلاقنا .

وبداية العلاج اكتشاف المرض والشعور بوجوده . والشعور بالمرض

مصيبة ، ولكن أعظم من ذلك أن يكون موجوداً ولا يشعر بوجوده ، أو يشعر به لكنه يسلك بها سبيلاً ، يوحى إلى نفسه ومن حوله أن ما هو عليه كياسة وفطنة ، وقد يتعسف ببعض الأدلة لتبرير حاله المتردية .

إذن يصبح الخطب غير خطير إذا اكتشف الإنسان هذه الأمراض من نفسه في وقت مبكر ، واعترف بها ، ولم يحاول تسويغها ؛ لأن العلاج يبدأ من معرفة الداء ، والله المستعان .

وما ستعرض له في هذه الدراسة هو بعض ما توصل له الذهن من العوائق الداخلية ، رآها الكاتب واستقرأها من نفسه أو ممن حوله من دعاة المسلمين ، ويمكن تلخيص هذه الأمراض والعوائق فيما يلي :

١- مساوئ القلوب وأمراضها :

إن أمراض القلوب لتعتبر أخطر الأمراض ، وأشنعها على الإطلاق ، وما ذاك إلا لأن القلب هو سيد الأعضاء ؛ فبصلاحه تصلح سائر الأعضاء ، وبفساده يحصل الفساد للجميع ، وهذا معنى قوله ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » ^(١) .

فبصلاح القلب تصلح النيات والمقاصد ، وتصلح العين فلا تنظر إلا في مرضات الله عز وجل ، وتصلح الأذن فلا تسمع إلا ما يرضي الله عز وجل ، ويصلح اللسان فلا ينطق ولا ينفلت إلا بما فيه مرضات الله عز وجل ، وتصلح اليد فلا تبطش إلا فيما يحبه الله عز وجل ، وتصلح الرجل فلا

(١) متفق عليه .

تخطو إلا إلى ما يرضي الله عز وجل ، وبالجمله يصلح كل كيان الإنسان ؛
ظاهره وباطنه ، فلا يتحرك إلا في نور الله عز وجل ، وبنور الله عز وجل .

وإن هذا القلب - على عظم شأنه - كثيراً ما ننساه ، ونتشاغل بغيره من
الأعمال الظاهرة ، ومع أن هذا مطلوب إلا أنه لابد أن يكون لأعمال الجوارح
أصل ومنطلق إيماني قلبي ، وهذا واضح من تعريف الإيمان عند أهل السنة ؛
فهو قول وعمل ؛ قول القلب وعمله ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح ،
ومع أنه لا ينبغي أن يطغى اهتمام شيء على شيء ، إلا أنه ينبغي أن نعطي
لأعمال القلوب اهتماماً خاصاً باعتبارها الأصل الأصيل في كل الأعمال .

والمقصود أن هناك تفريطاً في التفطيش عن القلوب وأمراضها ودسائسها ،
في الوقت الذي نجد من أصيب ببعض هذه الأمراض قد حافظ على الأعمال
الظاهرة ، وتورع عن بعض الصغائر والمشتبهات ، ويحسب أن الذي ينقصه
هو هذه فقط ، وما درى المسكين أن لديه في قلبه من الأمراض ما يوجب عليه
التورع منها ، وتقديم معالجتها على غيرها .

ولا يعني هذا أن يترك المسلم الورع في الصغائر والمشتبهات ؛ كلا ،
فهذا شيء طيب ، ولكن الذي أردنا التنبيه إليه هو أن هذا الذي يتورع عن
شيء صغير - قد يكون من الأمور المباحة ، ويتصور أن هذا ما ينقصه
فحسب - قد فرط في واجب صريح ، أو ارتكب عملاً محرماً صريحاً .

ونظراً لأهمية هذه المسألة أنقل كلاماً نفيساً لشيخ الإسلام ابن تيمية
رحمه الله تعالى يتعلق بهذا الموضوع ، أو قريباً منه ؛ حيث يتحدث عن غلط
بعض الناس في فهم الورع ، فقال :

« . . . لكن يقع الغلط في الورع على ثلاث جهات :

أحدها : اعتقاد كثير من الناس أنه من باب الترك ، فلا يرون الورع إلا في ترك الحرام ، لا في أداء الواجب ، وهذا ما ابتلي به كثير من المتدينة المتورعة ، ترى أحدهم يتورع عن الكلمة الكاذبة ، وعن الدرهم فيه شبهة لكونه من مال ظالم ، أو معاملة فاسدة ، ويتورع عن الركون إلى الظلمة من أجل البدع في الدين ، وذوي الفجور في الدنيا ، ومع هذا يترك أموراً واجبة عليه ؛ إما عيناً أو كفاية وقد تعينت عليه ، من : صلة رحم ، وحق جار ، ومسكين ، وصاحب ، ویتيم ، وابن سبيل ، وحق مسلم ، وذو سلطان ، وذو علم ، وعن أمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وعن الجهاد في سبيل الله . . . إلى غير ذلك مما فيه نفع للخلق في دينهم ودنياهم مما وجب عليه . أو يفعل ذلك لا على وجه العبادة لله تعالى ؛ بل من جهة التكليف ونحو ذلك»^(١) اهـ .

وقال رحمه الله تعالى حول المسألة أيضاً :

« وتام الورع أن يتعلم الإنسان خير الخيرين ، وشر الشرين ، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد ، وتقليلها ، وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية ، والمفسدة الشرعية ؛ فقد يدع واجبات ، ويفعل محرمات ، ويرى ذلك من الورع ، كمن يدع الجمعة والجماعات خلف الأئمة الذين فيهم بدعة ، أو فجور ، ويرى ذلك من الورع ، ويمتنع من قبول شهادة الصادق ، وأخذ علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفيفة ، ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذي يجب سماعه من الورع»^(٢) اهـ .

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٣٩/٢٠).

(٢) المصدر السابق (٥١٢/١٠).

إذن فالاهتمام بتقوى الله عز وجل وابتغاء مرضاته في العمل هو الذي ينبغي أن يُحرص عليه أشد من حرصنا على العمل نفسه ؛ لقوله تعالى : ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج : ٣٧] .

وعلى هذا ؛ فأعمالنا القلبية من أهم الأمور التي يجب أن نعتني بها ونلتفت إليها ولا ننساها ؛ لأن نسيان هذا الأمر يفرز رجالاً يحسنون الحديث عن الإسلام ، ويجيدون الوعظ والتدريس والخطابة ، ويظهرون الحرقه على هذا الدين حتى يخيل للسامع أنهم عمالقة مجاهدون صادقون ، وهم ليسوا كذلك ، وقد يوجد هذا الصنف من الناس في طبقات المؤلفين الكتاب ، فكم رأينا رجالاً ظننا أنهم أصحاب تضحيات وهمم عالية ، وذلك من خلال ما يقرأ لهم من مؤلفات ، لكن ما أن يقع البصر عليهم ، ويحصل الاحتكاك والمصاحبة لهم حتى يتبين شيء آخر يناقض ما تخيله المتخيل عنهم قبل رؤيتهم . وهنا مكنم الخطر ؛ أن يوجد داعية ما ، يعجب الناس بدعوته ، ويكبر في أعينهم مع أن في قلبه من الأمراض ما لا يعلمه الناس ، والله به عليم . نسأل الله عز وجل أن يصلح فساد قلوبنا .

وتزداد خطورة هذا الأمر عندما نتذكر قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه نذكر منه الشاهد هنا وهو قول الرسول ﷺ : « إِنْ الرَّجُلَ لِيَعْمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيَمَّا يَبْدُو لِلنَّاسِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَعْمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَمَّا يَبْدُو لِلنَّاسِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ »^(١) .

ومناسبة هذا الحديث لموضوعنا قوله ﷺ : « فَيَمَّا يَبْدُو لِلنَّاسِ » ؛ فقد يبدو للناس عن شخص ما أنه من أهل الجنة ، فيما يظهر لهم من أعماله الصالحة ، ودعوته ، ووعظه ، فيغبطه الناس على ذلك ، ولكن قد يكون

(١) رواه البخاري في الجهاد (٢٨٩٨)، ومسلم في الإيمان (١١٢) .

في قلب هذا الرجل دسيسة من شبهة أو شهوة لا يعلمها الناس ، ولكن يعلمها علام الغيوب ، وقد يعلم بها صاحبها لكنه يتغافل عنها ، أو يبررها ، وقد لا يحس بها أصلاً إلا إذا فتش ونقب ، ومن هنا تتبين خطورة هذه الدسائس القلبية الخفية ، وما قد تؤدي إليه من خاتمة مأساوية ، وكل مأساة تهون عند مأساة النار والعياذ بالله .

فيا أخوة الإيمان ؛ لنفتش في قلوبنا عن هذه الأمراض قبل فوات الأوان ، ولا نتصور أننا بريئون منها ، أو أن غيرنا هم الواقعون فيها ، ولكي يتضح هذا الأمر بصورة جلية نذكر بعض الأمراض القلبية والتي لا يسلم منها إلا من رحم الله :

أ- مرض الحسد :

هذا المرض العضال الذي قل من يسلم منه ، لكن بين مقل منه ومكثر . هذا المرض الذي يتصور أحدنا أنه مُعافى منه ، لكن ما أن يمر به موقف يتطلب منه سلامة القلب ، وحب الخير للغير حتى يكتشف هذا المرض من نفسه .

والحسد : هو تمنى زوال النعمة عن صاحبها ، أو هو كراهية نعمة الله على الغير ، ولو لم يتمن زوالها .

فإذا أنعم الله عز وجل على أحد المسلمين بنعمة من مال ، أو منصب ، أو زوجة ، أو أولاد ، أو غير ذلك من متاع الدنيا ، أو كانت النعمة دينية ؛ كطلب علم ، وعبادة ، ودعوة . . . إلخ . فليتفق أحدنا قلبه تجاه من أنعم الله عز وجل عليه بإحدى هذه النعم ؛ أيجد في قلبه شعور الارتياح والفرح ، أم إنه يجد عكس ذلك من الشعور بالغم ، والانقباض ، والضيق لذلك ، ويتمنى أن لو لم تأت هذه النعم ؟ .

وقبل ذلك : ما هو الشعور لو زالت عنه هذه النعم ؟ ؛ أهو شعور الفرح ، والغبطة ، والسرور ، والشماتة ، أو هو شعور المتألم لألمه ؟ ، فإن كان الأول فهو الحسد بعينه ، نعوذ بالله من ذلك .

إن هذا الموقف من المساءلة والمحاسبة للنفس لابد منه إذا أردنا معالجة أمراضها ، وعلينا أن نتحمل مسؤولية هذه المحاسبة ، ولو كان جوابها بالاعتراف بوجود هذه الأمراض ؛ لأن بداية العلاج كما سبق أن ذكرنا هي اكتشاف الداء . وأخطر من المرض نفسه أن يكون موجوداً ولا نحس بوجوده . ومعلوم أن الغل ، والحقد ، والشحناء ، والبغضاء كل أولئك ثمرة من ثمار الحسد ، ومعارضة لعلم الله عز وجل وحكمته وقدرته .

وليس أروح وأسعد للمسلم ، ولا أطرد لهمومه من أن يعيش سليم القلب مبرأ من وساوس الضغينة والأحقاد ؛ لا تراه إلا ويحب الخير للمسلمين . وما أسرع ما يتسرب الإيمان من القلب الغشوش ، وعند ذلك لا يكون في أداء العبادة لذة ، ولا خير ، ولا تستفيد منها النفس تقوى ولا عصمة .

وأتوجه بهذه المناسبة بنصيحتي إلى نفسي وإخواني الدعاة أن يصلحوا ذات بينهم ، ويزيلوا الشحناء من نفوسهم ، وأن يتعلموا أن نعم الله عز وجل ورحمته لا ينزلان على قلوب متنافرة ومتباغضة ، قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ » قالوا : بلى ، قال : « إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هو الحالقة ؛ لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين »^(١) .

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٩١٩) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١١) . والحديث في صحيح سنن أبي داود (٤١١١) .

وقال ﷺ : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخواناً »^(١) .

وقال ﷺ : « تعرض الأعمال كل اثنين وخميس ؛ فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً إلا امرؤ كانت بينه وبين أخيه شحناء ؛ فيقول اتركوا هذين حتى يصطلحا »^(٢) .

وهناك رذائل كثيرة حذر منها الإسلام ، تختلف في مظاهرها ، لكنها تعود إلى علة الحسد والحقد ؛ فالكذب والافتراء على الأبرياء ، وقول الزور ، والغيبة والنميمة . . . إلخ كلها رذائل ذات مصدر واحد ، لذلك إذا أردنا التخلص من هذه الرذائل وغيرها فعلينا إصلاح قلوبنا ، فبذلك تصلح شؤوننا كلها ، ويكون لدعوتنا حينئذ دور وأثر في حياة الناس ، وإلا فما قيمة أن ندعو الناس لترك الحسد والغش والشحناء ونحن بدورنا لم نعالج نفوسنا منه ؟ ! ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود : ٨٨] .

ب - أمراض الشرك الخفي :

كالنفاق ، والرياء ، والعجب ، والكبر ، والغرور ، وحب الشهرة والظهور ، كل هذه الأمراض الفتاكة يكفي أن نفتش عنها وعن أشكالها الكثيرة في حياتنا ؛ لتعرف على مدى كثرة أو قلة هذه الأمراض في قلوبنا ، وهي من الوضوح في حرمتها وخستها ، وشدة فتكها ؛ بحيث لا نطيل ونفصل فيها ، ولأن المقام مقام إشارة ، والحر تكفيه الإشارة ، ويكفي في هذا المقام أن نتعرف على معنى قوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

قال صاحب الظلال رحمه الله تعالى :

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٤) ، ومسلم في البر (٢٥٦٣) .

(٢) رواه مسلم في البر (٢٥٦٥) .

« وحتى الذين يؤمنون ، كثير منهم يتدسس الشرك - في صورة من صورهِ - إلى قلوبهم ؛ فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنفي عن القلب أولاً بأول كل خالجة شيطانية ، وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض في كل حركة وكل تصرف ، لتكون كلها لله ، خالصة له دون سواه ، والإيمان الخالص يحتاج إلى حسم كامل في قضية السلطان على القلب ، وعلى التصرف والسلوك ، فلا تبقى في القلب دينونة إلا لله سبحانه ، ولا تبقى في الحياة عبودية إلا للمولى الواحد الذي لا راد لما يريد .

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ . . . مشركون قيمة من قيم هذه الأرض في تقريرهم للأحداث ، والأشياء ، والأشخاص . مشركون سبباً من الأسباب مع قدرة الله ، في النفع ، أو الضرر سواء . مشركون في الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو موجه لا يستمد من شرع الله دون سواه . مشركون في رجاء يتعلق بغير الله من عباده على الإطلاق . مشركون في تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس . مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضرر ، ولكن لغير الله . مشركون في عبادة يلحظ فيها وجه مع وجه الله . لذلك يقول رسول الله ﷺ : « الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل »^(١) ، وفي الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفي :

روى الترمذي - وحسنه - من رواية ابن عمر : « من حلف بغير الله فقد أشرك »^(٢) وروى الإمام أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرقي والتمايم والتولة شرك »^(٣) . وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر ، قال : قال

(١) رواه أبو يعلى (٥٨) ، (٥٩) ، (٦٠) ، (٦١) . والحديث في صحيح الجامع (٣٧٣١) .

(٢) رواه الترمذي الأيمان والنذور (١٥٣٥) ، والحاكم (١٨/١) وصححه .

(٣) رواه أبو داود في الطب (٣٨٨٣) ، وابن ماجه في الطب (٣٥٣٠) ، وأحمد (٣٨١/١) .

رسول الله ﷺ : « من علق تيممة فقد أشرك »^(١).

وعن أبي هريرة - بإسناده - قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه »^(٢).

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد بن أبي فضالة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك »^(٣).

وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ، قال : « الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا ؛ هل تجدون عندهم من جزاء ؟ »^(٤).

فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان .

وهناك الشرك الواضح الظاهر ، وهو الدينونة لغير الله في شأن من شؤون الحياة ، الدينونة في شرع يتحاكم إليه - وهو نص في الشرك لا يجادل عليه - والدينونة في تقليد من التقاليد ؛ كاتخاذ أعياد ومواسم يشرعها الناس ولم يشرعها الله ، والدينونة في زيّ من الأزياء يخالف ما أمر الله به من

(١) رواه أحمد (١٥٦/٤) ، وهو في السلسلة الصحيحة (٤٩٢).

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٨٩٥).

(٣) رواه الترمذي في التفسير (٣١٥٢) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٣) ، وأحمد (٤٦٦/٣).

(٤) (٢١٥/٤) . وفي صحيح ابن ماجه : حسن (٣٣٨٨).

(٤) رواه أحمد (٤٢٨/٥ ، ٤٢٩) ، وهو في السلسلة الصحيحة (٩٥١).

الستر ، ويكشف أو يحدد العورات التي نصت شريعة الله أن تستر .
والأمر في مثل هذه الشؤون يتجاوز منطقة الإثم والذنب بالمخالفة ،
حين يكون طاعة وخضوعاً ودينونة لعرف اجتماعي سائد من صنع العبيد ،
وتركاً للأمر الواضح الصادر من رب العبيد . . إنه عندئذ لا يكون ذنباً ،
ولكنه يكون شركاً ؛ لأنه يدل على الدينونة لغير الله فيما يخالف أمر الله . .
وهو من هذه الناحية أمر خطير . . ، ومن ثم يقول الله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ
بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ ^(١) اهـ .

جـ- شهوة الدنيا والركون إليها :

إن هذا المرض يعتبر من أخطر الأمراض التي بدأت تسري في حياتنا ،
وحياة كثير من الدعاة إلى الله عز وجل وبأشكال كثيرة وأودية متشعبة قد لا
يشعر بها ، أو يشعر بها ، ولكنها من الثقل بحيث يصعب التغلب عليها .
وعلى أية حال ؛ فحب الدنيا ، والسعي وراءها ، وامتلاء القلب بها ،
واستحواذها على همنا وتفكيرنا ، هو الواقع المر الذي يجب أن نعترف به إلا
من رحم الله .

ولو وازن أحدنا بين هم الدنيا والحيز الذي تشغله من قلبه وتفكيره ،
وبين هم الآخرة ، وهم هذا الدين لوجد أن البون شاسع والفرق كبير ،
ولوجد أن الدعوة وأمر هذا الدين يظهر على اللسان والأعمال الظاهرة ، أما
القلوب ؛ فلم يشغل منها إلا القليل ، وإنما الهم الأكبر فهو لهذه الدنيا
ومتاعها الزائل ؛ كل حسب اهتمامه وواديه الذي ذهب فيه من وديانها
وشعابها التي ذكر الله عز وجل أهمها في سورة آل عمران بقوله : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ
حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ

(١) في ظلال القرآن عند الآية ١٠٦ من سورة يوسف (باختصار) .

المآب ﴿آل عمران : ١٤﴾ .

وقال تعالى في سورة التوبة : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة : ٢٤] .

وإن هذا المرض تشتد بشاعته عند أولئك الذين تصدروا للدعوة وقيادة المسلمين ، وتوجيههم ، فبالله العظيم كيف يمكن لمن ملأت الدنيا قلبه أن يدعو الناس إلى الآخرة ؟! أو يتصدر الدعوة إلى الله عز وجل وقيادتهم ، وإن وجود هذه الشهوة في قلوب الدعوة إلى الله عز وجل من أكبر العوائق التي تعوق الدعوة عن تحقيق أهدافها ؛ بل تؤخرها إلى الوراء إن لم تقض عليها .

إن مرض إيثار العاجلة على الآخرة يكاد أن يطم على حياة كثير من الدعوة ؛ حيث نجد أن الكثرة الكاثرة في حقل الدعوة إلى الله عز وجل تحصر انتماءها إلى الدعوة في إلقاء خطبة ، أو موعظة ، أو حضور جلسة ، أو درس أسبوعي أو شهري ثم ينصرف من ذلك بقلبه وقالبه إلى أعمال الدنيا ، والتمتع بملذاتها ، ومساكنها ، ومراكبها ، ويتوسع في ذلك بشكل يوحى إلى المتأمل فيمن هذه حاله أنه سيخلد في هذه الدنيا ، وأن ليس له ما يشغل ذهنه إلا متاعها الزائل .

أما أن يسهم في دفع الغالي والنفيس في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل ومرضاته ، والجهاد في سبيله ، فأحسب أن هذا الصنف من الدعوة قليل في هذا العصر ، وصدق الرسول ﷺ : « إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة » ^(١) .

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٨) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٧) .

ولا يفهم من هذا الكلام الامتناع عما أحل الله من الطيبات أو الامتناع عن التجارة ، والوظيفة ، بل كل ذلك محمود ما دامت التجارة أو الوظيفة لا تطغى على الدعوة ، وما دام الداعية يستفيد من ذلك كله في دعوته ، والتقديم لآخرته . أما أن تطغى الوظيفة والتجارة ، والدنيا بشكل عام ، على الدعوة ، والاهتمامات العالية ، ويبدأ الداعية يعيش حياة التجار في ترف ، وتنعم ورفاه ، فهذا هو المذموم ، وهذا هو الذي بدأ ينتشر في حياة الدعاة اليوم ، وهنا بداية الانزلاق ، وبالذات إذا كان الداعية رأساً وموجهاً في حقل الدعوة إلى الله عز وجل .

فلنتصور داعية وموجهاً يقود دعوة ، ويعتبر موجهاً لها ، ثم هو في نفس الوقت نراه من تجار الدنيا ، يبيع ويشترى ، ويشغل جسمه في النهار ، وفكره في الليل بهذه الدنيا ومتاعها ؛ إنه لا يمكن تصور ذلك أبداً ؛ فما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه .

ومثل ذلك ، هذا الداعية الموظف الذي أخذت عليه وظيفته كل وقته ؛ عملاً رسمياً في نصف النهار الأول ، ثم إضافياً في آخره ، فأين ومتى وقت الدعوة والعمل في سبيل الله عز وجل ؟ ، اللهم إلا ما تبقى من الوقت في الليل ، فيأتيه وهو كالذهن ، متعب الجسد ، ويعزي نفسه بذلك ، ثم يدور الوقت هكذا ، وينصرم العمر القصير ، والهم الأكبر هو متاع الدنيا وزخرفها الفاني . والله المستعان .

أيها الإخوة في الله :

يجب أن نلتفت إلى قلوبنا ، وأن نتحسس هذه الأمراض فيها ، وكيف نعالجها . يجب أن يسأل كل منا نفسه : كم من الأقوال والأعمال التي كان يدعو الناس إليها وهي تخالف ما في قلبه ؟ ، يجب أن نحذر من قوله

تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٧] ، في الوقت الذي يتصور الناس عن هذا الداعية أنه من أحسن الدعاة خلقاً وعبادة ، والحالة ليست كذلك ؛ فالقلوب القلوب ؛ عناية وإصلاحاً ومعالجة أمراضها التي تعد أخطر الأمراض وأشدّها فتكاً .

والآن وبعد الحديث عن أصل المثالب والمساوئ وهي القلوب ، نستعرض بعض المثالب السلوكية ، التي يكثر انتشارها في أوساط الطيبين من الدعاة ، فضلاً عن عامة الناس ودهماتهم .

٢. المخالفات في الهدي الظاهر :

يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

والتأسي بالرسول ﷺ يشمل شئون حياته كلها وأحواله كلها الظاهرة والباطنة ، وأول من يخاطب بهذا التوجيه الدعاة إلى الله عز وجل ، والذين هم بدورهم يوجهون الناس إلى العمل بمقتضى هذه الآية .

ولكن مع ذلك في حياتنا كثير من التساهل في التأسي به ﷺ ، فمن هذه المخالفات في الهدي الظاهر : التساهل في إعفاء اللحية وإكرامها ، أو قص الشارب أو حفه أو في بقية خصال الفطرة ، وكذلك في اللباس والهيئة ، والمسكن ، والمأكل ، والمركب . . . إلخ .

كل هذه الأمور قد يحصل التساهل فيها ، ويقع البعض في الإسراف المحرم ، والمخيلة ، وحب الشهرة ، وليس هنا موضع التفصيل وضرب الأمثلة ؛ فكل إنسان أعلم بنفسه وحاله .

وقد نجد من يقول عند الحديث حول هذه المخالفات : إنها من القشور ،

وينبغي أن نهتم باللب . . . إلخ .

وهذا القول في نظري خاطئ ، ومنحرف ، وغريب على معنى الاستسلام لله عز وجل وشرعه ، فليس في الدين قشور ولباب ، وإنما هو لحمه واحدة ، والاستسلام لله عز وجل في الصغير كالاستسلام له في الكبير .

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [البقرة : ٢٠٨] .

٣- منكرات البيوت :

يوجد من الدعاة إلى الله عز وجل من يتساهل في أمور البيوت ، ومقتنياتهما ، فلا يحكم فيها بشرع الله عز وجل ، وهو الداعية المتصدر لإرشاد الناس وتوجيههم .

* فنجد مثلاً من يتساهل في إبقاء التلفاز مع ما فيه من شر مستطير ، وإثم كبير يغضب رب العالمين ، فبالله كيف يقدم على ذلك داعية يخاف حساب الله عز وجل ويرجو ثوابه ، ويريد هداية الناس .

كيف يطاوع نفسه الأمانة ، أو يطاوع أهله وأولاده في الإبقاء على هذا المنكر ؟ ثم بعد ذلك يدعو الناس ويرشدهم ، بل كيف سيقبل الناس دعوة من يناقض نفسه بنفسه ؟ .

والأخطر من ذلك تضليل الناس ودهمائهم ، وتحبيب هذا المنكر لهم بحجة التأسّي بهذا الداعية ، ولو كان منكراً لما أبقاه فلان وفلان من الدعاة وطلبة العلم !! .

* ومن منكرات البيوت أيضاً : والتي يحصل التساهل والترخص فيها وجود الخدم الأجانب والخدمات الأجنبية الحرائر ، ووجود السائقين الذي يخلون بالمحارم من البنات والأخوات والزوجات ، ومعلوم ما في هذا من المخالفة لشرع الله جهاراً نهاراً ، وكل هذه المنكرات لا تحتاج إلى مناقشة وتدليل على حرمتها لوضوح ذلك وبيانه ، ومع ذلك يحصل الترخص من بعض الطيبين في ذلك ، ويرضخ للأمر الواقع على حد زعمهم ، وتنتشر مثل هذه المخالفات في البيئات المترفة المنعمة دون التقيد بالضوابط الشرعية في ذلك .

* ومن منكرات البيوت أيضاً : التساهل في صور ذوات الأرواح حتى أصبح ذلك الأمر طبيعياً في حياة الناس - دعائهم وعوامهم - إلا من رحم الله ، ويتمثل ذلك في إدخال المجلات المصورة ومجلات الأزياء والمجلات النسائية . . . إلخ ، بحجج واهية لا تسمن ولا تغني من جوع .

* ومن منكرات البيوت أيضاً : التساهل في حشمة النساء داخل المنزل ، خاصة إذا وجد أكثر من عائلة ، وكان هناك مجال للاختلاط ، كما يحصل نوع من التبرج المقصود أو غير المقصود عند الخروج من المنزل ، كما أن هناك من يترخص ويتوسع في أدوات الزينة والتجميل ؛ مما قد يكون بعضه محرماً ، وولي الأمر في غفلة من هذا ، أو في تغافل عنه .

٤- إهمال تربية الأهل والأولاد :

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .

وهذه الفقرة متعلقة أو مرتبطة بما قبلها ؛ بل إن الملاحظة السابقة ثمرة من ثمار الإهمال والتساهل في تربية الأهل والأولاد ، ومعلوم أن أولى الناس بالمعروف والدعوة ، هم أهل الإنسان وخاصته ، ولكن - وللأسف - نجد التساهل الشديد في هذا الأمر عند الكثير منا .

ومن مظاهر هذا التساهل ؛ أن نرى الداعية نشيطاً ومتحركاً في الخارج ، في جميع المجالات ، بينما لا ينعم أهله ومن استرعاه الله عليهم برؤيته إلا قليلاً ، وتراهم يجهلون كثيراً من أحكام الدين الأساسية ، وقد يقعون في بعض المحظورات والمنهيات ، فلا يهتم بهم ولا يأمرهم وينهاهم ، بل لا يتفقد أحوالهم ليعلم وقوعها منهم ؛ لأنه لا يجد الوقت الذي يجلس معهم فيه ليعلمهم ويربيهم .

أليس من المؤسف له أن يوجد في بيوت كثير من الدعاة من الأهل والأولاد من لا يعرف كيف يتوضأ أو كيف يصلي؟ أو يجهلون أحكام الصيام وكثيراً من فروض العين الواجب على كل مسلم بعينه أن يتعلمها ؟ ؛ قال رسول الله ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ؛ فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيته ، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته » قال الرواي وهو عبد الله بن عمر : فسمعت هؤلاء من النبي ﷺ ، وأحسب النبي ﷺ قال : « والرجل في مال أبيه راع ومسئول عن رعيته ؛ فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته »^(١) .

وهناك معالجات خاطئة لحقوق الزوجة والأولاد بين الإفراط والتفريط ؛

(١) متفق عليه .

فقد يوجد من يهمل أهله ، وبيته بحجة الدعوة إلى الله عز وجل ، والتضحية في سبيله ، كما يوجد في الطرف الثاني من يهمل أمور الدعوة ، وطلب العلم والجهاد ، بحجة حقوق الزوجة والأولاد ؛ فلا تجده إلا وهو يدور في فلکهم وطلباتهم ، والموفق من وفقه الله عز وجل في هذا الأمر وبأن أعطي كل ذي حق حقه ، والوسطية سمة من سمات هذا الدين العظيم .

٥- التفريط في حقوق الوالدين وصلة الأرحام وحقوق الجار :

قال الله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا﴾ [النساء : ٣٦] .

إن هذه الحقوق قد تساهل فيها كثير من الطيبين ، مع المعرفة بها وبفرضيتها ، وبالذات حقوق الوالدين التي تأتي بعد الأمر بتوحيد الله عز وجل ، وما بعد الشرك بالله عز وجل ذنب أشد من عقوق الوالدين ، ومع ذلك فهناك تفريط في هذا الحق ، وبالأخص حق الأم ، والمقام هنا ليس مقام تفصيل وتدليل ؛ إنما المراد التذكير والإشارة إلى ضرورة الانتباه إلى هذا الواجب العظيم ، وألا يفرط فيه بحجة أو بأخرى .

ومن أمثلة التساهل في هذه الحقوق التقصير في خدمة الوالدين ، وتلبية طلباتهم ، وتقديم النوافل على طاعتهم الواجبة ، ومن ذلك أيضاً عدم التلطف معهم ، وخفض الجناح لهم والصبر عليهم ، وتفقد أحوالهم ، وما يطرأ عليهم في الكبر ، وتقديم رضا الآخرين عليهم . . . إلخ .

وهناك أمثلة أخرى من التفريط لا يتسع لها المقام ، وكل هذا مع الأسف

يصدر من بعض الدعاة الذين يحضون في دعوتهم على بر الوالدين ، والقيام بحقوقهم ، فليت شعري كيف يستقيم الظل والعود أعوج !!
ومن الحقوق المتساهل فيها أيضاً : حقوق الأقارب ، وصلة الأرحام ، وعدم زيارتهم ومواساتهم ، وتفقد أحوالهم ، وخدمتهم عند الحاجة ، وذلك من الأخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات ونحوهم .
ومن الحقوق التي يحصل التفريط فيها أيضاً : حقوق الجار ، وعدم الإحسان إليه ، بل يتعدى الأمر إلى الإيذاء والمضايقة والهجران .

٦- التساهل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

هناك من الدعاة من يهون من شأن هذا الأمر ، وأنه ترقيع وتضييع للجهود ، ومعلوم ما في هذا القول من خطر ، وفتح الباب للفساد ، وترك المفسدين ليفسدوا في الأرض ، والله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١] .
فياليت أن مثل هذا الصنف من الناس لهم جهود أخرى في الدعوة والتعليم والتوجيه ، ليعذروا في تركهم هذا الواجب العظيم ، وياليتهم إذ عجزوا عن هذه الشعيرة العظيمة تركوا غيرهم ليسدها .

٧- التساهل في صلاة الجماعة :

ويظهر ذلك في التأخر عنها وعدم التبكير لها ، وإدراك الصف الأول ، وتكبيرة الإحرام ، بل قد تفوت الصلاة كلها أو بعضها بغير عذر شرعي ، وخاصة صلاة الفجر والعصر ، واللذان هما من أفضل الصلوات ، بل إن ظاهرة تأخر الطيبين عن الصلاة بدأت تلاحظ في كثير من المساجد ، وأصبح

بعض العوام يشهرون ويتندرون ، بأن الذين يقضون بعد الصلاة ، من بينهم كثير من الطيبين الملتحين !! .

٨- التفريط في طلب العلم والتفقه في الدين :

يكتفي كثير من الطيبين بالتقليد ، والتنف من العلم : كالاكتفاء بالرسائل الصغيرة ، والأشرطة المسجلة ، والخطب ، والمحاضرات ، وكل هذه الأمور طيبة ، وضرورية ، خاصة وتلك التي يغلب عليها الوعظ والتذكير ، أما الدروس العلمية والكتب العلمية المؤصلة فتضعف النفس إزاءها ، ولا يوجد الجلد والصبر على قراءتها وملازمة العلماء ، رغم كثرة الكتب ، وتوفرها وتفنتها ، ورغم توفر الدروس والعلماء وطلاب العلم ووجود الفراغ الذي لم يستثمر ، وإنما يضيع في ما لا ينفع في أكثر الأحيان ، ومعلوم ما للعلم من دور كبير في معرفة الحق ، واستنارة الطريق ، والدعوة إلى الله عز وجل على بصيرة .

٩- آفات اللسان :

وهي كثيرة ومتنوعة ولا يكاد يخلو منها مسلم إلا من رحم الله تعالى ، وأعانه على نفسه وشيطانه ، فمن هذه الآفات :

* تساهل الكثير من الطيبين في صدق الحديث والوقوع في ضده ؛ وهو الكذب والخداع والمراوغة ، وأكثر الأحيان لا يوجد مبرر لذلك . ومن المؤسف له أننا نعلم حرمة هذه المخالفات وعدم شرعيتها ، فكيف يتصور وقوع هذه المحرمات من دعاة يرجون النصر من الله عز وجل على أعدائهم؟! .

* ومن آفات اللسان أيضاً : الغيبة ، والنميمة ، واللمز ، والهمز ،

واللغو ، والسخرية ، وكل هذه الآفات قد جاء الإسلام بتحريمها ، ومع ذلك يترخص الكثير فيها بمبرر أحياناً وبدون مبرر أحياناً كثيرة ، والجدير بالذكر هنا أنه لا ينقصنا معرفة حرمة هذه المنهيات ؛ فكم قرأنا في كتاب الله عز وجل وفي سنة رسوله ﷺ عن التحذير منها ، ومع ذلك لم يحصل الارتداع والانتفاء ، فما السر في ذلك ؟ ! .

السرف في ذلك - والله أعلم - هو ما ذكرته آنفاً في مقدمة الموضوع عن أمراض القلوب ، وأنها أساس الأمراض كلها ، فما لم نصلح أمراض قلوبنا ، ونظهرها من الحسد وحب الترفع عن الناس والكبر . . . إلخ ، فإننا لن نستطيع الإقلاع عن هذه المساوئ من الأخلاق ، مهما قرأنا وعلمنا ؛ فلا يصلح الغصن والجذر فاسد .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - كلام نفيس حول دوافع الغيبة ، يرجعها إلى فساد القلوب ، فتراه يقول رحمه الله تعالى (ج ٢٨ ص ٢٣٦-٢٣٨) (باختصار) :

« * من الناس من يغتاب موافقةً لجلسائه وأصحابه وعشائره ، مع علمه أن المغتاب بريء مما يقولون ، أو فيه بعض ما يقولون ، لكن يرى أنه لو أنكر عليهم لقطع المجلس ، واستثقله أهل المجلس ونفروا عنه .

* ومنهم من يخرج الغيبة في قوالب شتى : تارة في قالب ديانة وصلاح ، ويقول : ليس لي عادة أن أذكر أحداً إلا بخير ، ولا أحب الغيبة والكذب ، وإنما أخبركم بأحواله ، ويقول : والله إنه مسكين ورجل جيد ولكن فيه كيت وكيت ، وربما يقول : دعونا منه ، الله يغفر لنا وله ، وقصده من ذلك استنقاظه .

* ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة ؛ فيجمع بين أمرين قبيحين :
الغيبة والحسد .

* ومنهم من يخرج الغيبة في قالب تمسخر ولعب ؛ ليضحك غيره
باستهزائه ومحاكاته واستصغار المستهزأ به .

* ومنهم من يخرج الغيبة في قالب التعجب فيقول : تعجب من فلان
كيف لا يفعل كيت وكيت ؟! ، ومن فلان كيف وقع منه كيت وكيت ؟! .

* ومنهم من يخرج الاغتمام ، فيقول : مسكين فلان غمني ما جرى
له ، وما تم له ، فيظن من سمعه أنه يغتم له ، ويتأسف ، وقلبه منطو على
التشفي به ، ولو قدر لزيد على ما به .

* ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكار منكر وقصده غير ما
أظهر^(١) اهد باختصار .

* ومن آفات اللسان : الفحش والبذاءة في القول ، خاصة عند الخصومة
والجدال ، فقد يوجد داعية طيب حسن المعتقد ذو همة في دعوته ، ولكن ما
إن يحصل بينه وبين أحد خصومة أو جدل ، حتى ينقلب إلى وحش كاسر قد
اشتد غضبه ، وارتفع صوته ، وسفه عقل مخاصمه ، وبالتالي يفجر في
خصومته ، والرسول ﷺ قد عد الفجور في الخصومة من خصال المنافق ،
وبين لنا أن المؤمن ليس بالسباب ولا اللعان ، ولا الفاحش البذيء .

١٠- التفريط في غض البصر :

وهذه السيئة لا يكاد يخلو منها أحد إلا من رحم الله ، وجاهد نفسه

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/٢٣٦-٢٣٨) .

وهواه . والناس فيها بين مقل ومكثر ؛ فالنظر إلى النساء الأجنيات وإلى صورهن في الأفلام أو المجلات والصحف ؛ كل هذا قد جاءت الشريعة بتحريمه ، إلا نظرة الفجاءة الأولى ، ويكفي في ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ [النور : ٣٠] .

والمطلوب منا في هذا الأمر أن نبذل أسباب الوقاية من ذلك ؛ فيجاهد المسلم نفسه ألا يعرض نفسه لمواطن النساء قدر ما يستطيع : كالأسواق والحدائق والمطارات والأسفار . . . إلخ ، وأن يعمل جاهداً . كما سبق أن أشرنا إليه في منكرات البيوت - في منع دخول بيته المجلات والأفلام والصحف ، التي تتخذ المرأة سلعة رخيصة للدعاية وجلب الأنظار ، والله المستعان .

١١- الرضى من النفس بالدون :

يوجد من الطيبين من يحقر نفسه ، حتى يحط من قدرها وهمتها ، وأنها ليست على مستوى طلاب العلم ، والدعاة إلى الله عز وجل ؛ وهذا مدخل شيطاني دقيق ؛ لأن الشيطان حريص على تخذيل الإنسان وتخطيم همته ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان : ٢٩] .

فيجب أن ننتبه لهذا الأمر ، ونرتفع بأنفسنا إلى مستوى إسلامنا وإلى المهام العليا ، وفرق بين قوة النفس والهمة العالية وبين الغرور والعجب ، كما أن هناك فرقاً بين التواضع المحمود وبين الدونية الممقوتة ، ويكفي أن يكون قدوتنا في ذلك عباد الرحمن الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

فهم يسألون الله عز وجل أن يجعلهم أئمة وقادة وقدوة للمتقين ، وليسوا

من المتقين فحسب ، فما أعظمها من همة .

١٢- السفر إلى بلاد الكفر والفساد لغير ضرورة:

ويقع في هذه المخالفة بعض الطيبين من الدعاة، بحجة السياحة واستطلاع أحوال الأعداء!، وحضور بعض المنتديات أو المعارض والمؤتمرات، التي لا تكافئ مصلحة حضورها المفسدة الناجمة عنها ؛ إذ إنها من باب الكماليات وليست من الضروريات ولا الحاجيات ، ومما يزيد الأمر سوءاً تساهل هؤلاء الطيبين باصطحاب أهليهم وأولادهم ، وهذا مما يزيد الطين بلة ؛ حيث يتحمل وزر نفسه ووزر من سافر معه ، والجميع يعرف ما في بلاد الكفر ، ودول الفساد من الفتن ، والمفاسد العظيمة التي تؤثر في الدين ، والأخلاق . والمسلم مطلوب منه أن يفر بدينه من الفتن لا أن يفر بدينه إلى الفتن .

١٣- التهوين من شأن العلماء والدعاة والحط من قدرهم :

ويصدر هذا العمل المشين من بعض الطيبين المتعجلين أو المتعصبين ، وذلك عندما يقع بعض العلماء أو الدعاة في بعض الأخطاء التي صدرت منهم اجتهاداً أو ضعفاً ؛ مما يؤدي إلى انتقادهم ، والتشهير بأخطائهم من قبل هؤلاء المتعصبين .

ومن المعلوم أن غيبة العلماء والتهوين من قدرهم - بسبب خطأ ارتكبهه - فيه فتنة وخطر كبير ؛ لأن أهل الشر والفساد يستغلون مثل ذلك للنيل من علماء الإسلام ، وتوهين الارتباط بينهم وبين عامة الناس ، وبالتالي فإن هذا يمهّد للنيل من الإسلام نفسه .

وفرق بين النصيحة للعالم ومعالجة الخطأ الصادر منه ، وفهم المبررات والملازمات التي أدت إلى ذلك ، والاعتذار له بعد ذلك ؛ فرق بين هذا وبين التشهير به ، والنيل من عرضه ؛ فلهجوم العلماء مسمومة (كما يقال) .

وعندما نذكر العلماء والدعاة في هذا الصدد نقصد أولئك العلماء المخلصين ؛ حيث إنهم صمام الأمان لأمتهم ، وإذا ذهب العلماء ، وذهبت هيبتهم ذهب الدين تبعاً لذلك . أما علماء السوء ، وكل منافق عليم اللسان ، فلا يدافع عنه ولا كرامة ؛ لأنه قد عرض نفسه للتهم والشبهات ، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه .

والحديث عن العلماء يجرنا إلى الحديث عن الدعاة المخلصين ؛ حيث يوجد من يهون من شأنهم وجهدهم وتراثهم وفكرهم ، لا لشيء إلا أنه خالفه في الأسلوب أو الطريقة أو أنه ليس من طائفته ، وفي هذا بخس للناس في أشيائهم ، وفيه لوثة الكبر والعجب . فكأن ليس في الساحة الدعوية إلا هو ومن حوله ، وليس من يؤلف ويكتب ويفهم الأمور إلا هو ، أما الآخرون فهم أقل من ذلك ، وإن وجد من يؤلف أو يقوم بدور دعوي ، فإنه يغمض عينه عن ذلك ، أو يشكك في مقاصدهم . . إلى غير ذلك من الظلم والعدوان .

ولو كانت القلوب سليمة نقية لحصل العكس ؛ ألا وهو الفرح بدعوة الدعاة الآخرين وجهودهم ؛ فالداعية المخلص يفرح بذلك ويرى أن الدعاة يكمل بعضهم بعضاً ، والداعية الصادق يذكر لأهل الفضل فضلهم وخيرهم وبلاءهم ، والداعية الناصح يسعى لإقامة التعاون بين الدعاة ، ويسعى لوحدة الصف واجتماع الكلمة ، وإن تعذر فلا أقل من أن يحب بعضهم

بعضاً ، وأن يثني بعضهم على ما يرى عند البعض من خير ، وسلامة منهج ، ونظافة سلوك ، وهذا كله من مقتضيات الولاء ، ومن لوازم العدل والإنصاف .

١٤- الحزبية المقيتة :

وهذه السيئة متعلقة بما قبلها ؛ بل هي سبب لها . ومنع هذه الخلطة المذمومة تلوث معنى الولاء في القلب ، فبذل أن يبذل الولاء لكل مسلم صحيح المعتقد ، نرى أنه يوجه لأفراد الحزب أو الطائفة أو القوم الذين هو منهم ، فلا يحب ولا يبغض إلا على أساسهم ، ولا ينظر إلا بمنظارهم .

وواضح ما في هذا من انحراف وتخبط ، يتحمل وزره ، ويؤء بإثمه من تلبس به ، ومن ربي غيره عليه ، فأصل الموالاتة والمعاداة في الإسلام على العقيدة ؛ فكل مسلم صحيح الإيمان يجب أن يبذل له من المحبة والموالاتة بغض النظر عن جنسه ولونه أو لغته ، وصاحب العقيدة الصحيحة من أهل السنة والجماعة ، والمتخلق بأخلاق السلف ، يجب أن يبذل له الولاء التام الكامل .

أما المسلم المقدوح في عقيدته أو سلوكه - لكن لا تصل هذه القوادح إلى حد الكفر - فمثل هذا يبذل له الولاء العام المكافئ لما فيه من الإيمان والخير ، ويتبرأ من بدعته ، وخلقه المشين . أما الذي ينتفي عنه الولاء بالكلية ، ولا يجوز في حقه إلا البراءة التامة ، فهو الكافر والمنافق نفاقاً اعتقادياً ظهرت عليه علاماته .

١٥- إهمال كتاب الله عز وجل قراءة وتدبراً :

هناك تقصير ملاحظ في حق كتاب الله عز وجل ، والذي قال الله عز وجل

عنه : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس : ٥٧ ، ٥٨] .

ومن مظاهر هذا التقصير هجر قراءته ، إلا في أوقات متباعدة ، وهجر تدبره وتعاهده ، والعمل به ، وقد يبرر هذا الانشغال بأمور الدعوة ، أو القراءة في كتب العلم الأخرى ، وقد يمر على الداعية يوم أو يومان أو أكثر ، وما قرأ فيها من كتاب الله عز وجل شيئاً ، وإن قرأ فبدون تدبر وخشوع ؛ بل يقرأ أحدنا القرآن وهو متلبس ببعض المنهيات التي نهى عنها القرآن ، أو تاركاً لبعض الواجبات التي أمر بها القرآن ، والإصرار على ذلك ؛ كمن يقع منه الكذب والغيبة والنميمة والظلم والعدوان وإطلاق البصر وقطيعة الرحم والحسد والرياء . . . إلخ .

وما كان هذا هو منهج السلف في قراءتهم للقرآن وتلقيهم لأحكامه ؛ بل المعروف عنهم أنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يفهموها ، ويعملوا بها ؛ فيتعلمون العلم والعمل ، وجاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في وصف حالة السلف مع القرآن ، ووصف من بعدهم قوله : « كنا نؤتى الإيمان قبل القرآن ، فيقرأ أحدنا القرآن فيقف عند زاجره وأمره ، وحلاله وحرامه . ولقد أدركت أناساً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان ، فيقرأ أحدهم القرآن من فاتحته إلى خاتمته لا يقف عند زاجره ولا أمره » ، أو كما قال رضي الله تعالى عنه .

إذن كان السلف رحمهم الله تعالى يقرءون القرآن ، وقد امتلأت قلوبهم بالإيمان ؛ فيكون لكلام الله عز وجل أثر في حياتهم وسلوكهم ، أما من أوتي

القرآن والقلب خاوياً من الإيمان ؛ فإنه يقرأ القرآن والقلب مشحون ، ومملوء بشهوات الدنيا ، ومتفرق في شعابها ، وقد يكون حافظاً للقرآن ، ويقرؤه بتجويد وصوت حسن لكن بدون تدبر وخشوع وعمل . وأكبر دليل على ذلك أن كثيراً منا يقرأ القرآن من جلده إلى جلده دون أن تقطر عينه من خشية الله وسماع كلامه عز وجل .

١٦- التفريط في كسب المال الحلال :

إن هناك تساهلاً كبيراً عند بعض الدعاة ، في تحري الحلال والطيبات من الرزق ، في الوقت الذي ينبغي فيه الحذر الشديد من جراء التساهل في هذا الأمر ، وخاصة في عصرنا اليوم ، والذي عز فيه المكسب الحلال لكثرة الشبه ، وانفتاح كثير من أبواب الربا ، والبيوع المحرمة ، وغموض كثير من المعاملات التجارية ، مع ما يصاحبها من قلة إيمان وضعف نفس .

ويتمثل هذا التساهل ، إما في عين المال المكتسب في بعض التجارات المشبوهة ، والتي لا يمكن الحصول عليها إلا بالوقوع في الحرام أو شبه الحرام أو يتمثل هذا التساهل أيضاً في طريقة الكسب ؛ كالتقصير في إتقان الوظيفة أو المهمة المسندة لصاحبها ؛ سواء في ضبط دوامها أو تضييع الوقت أثناءها ، أو الاستفادة من الوظيفة وخدماتها في الأغراض الشخصية .

كما يظهر التساهل أيضاً في الترخص في مصاحبة من لا خلاق له من تجار الدنيا ، ومداومة الجلوس معهم ومداونتهم ، وبالذات إذا كانت المعاملة مع غير المسلمين ! .

١٧- الجبن والبخل :

إن هذين الخلقين الذميين قد أكثر الرسول ﷺ من التعوذ منهما في أكثر

من دعاء ، فقال : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وضلع الدين وغلبة الرجال »^(١) ، وقال : « اللهم إني أعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وعذاب القبر »^(٢) .

وقد يظهر الجبن والبخل على اللسان ، وقد لا يظهران إلا عند المواقف التي تتطلب الشجاعة والكرم ، وهذان الخلقان لا يجوز أن يجتمعا عند داعية ، مع العلم أنه قلما يوجد أحد هذين الخلقين عند شخص إلا ويوجد معه الخلق الآخر ، وغالباً ما يكون البخيل جباناً ، والجبان بخيلاً ؛ لأن الشح يجمعهما ؛ فالجبان شح بنفسه ، والبخيل شح بماله ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] .

وإن داعية فيه هاتان الخلتان الذميتان ، لا يصلح لدعوة فيها بذل وتضحية ؛ لأن الدعوة إلى الله عز وجل تتطلب التضحية بالمال والنفس .

ولما جاء وفد إلى رسول الله ﷺ وهو وفد بني سلمة من الأنصار ، قال لهم الرسول ﷺ : « من سيدكم يا بني سلمة ؟ قالوا : الجد بن قيس على أنا نبخله ، فقال بيده هكذا ، ومد يده ، وأي داء أدوا من البخل ، بل سيدكم عمرو بن الجموح »^(٣) .

فمن هذه القصة نرى أن الرسول ﷺ لم يرض لمن يسود الناس أن يكون بخيلاً .

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٦٩) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٦) .

(٢) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٧٤) .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد ، وصححه الألباني - صحيح الأدب المفرد (٢٩٦/٢٢٧) ، وانظر : الإصابة - ترجمة عمرو بن الجموح .

وقد يظهر شخص ما أنه سالم من هاتين الصفتين ، والحقيقة غير ذلك لأنه لم تأت المواقف التي توضح وجودهما من عدمهما .
وهناك موقفان يبتلي الله عز وجل بهما عباده المؤمنين ليعلم من يثبت ممن يزل ويزيغ ؛ ألا وهما : موقف الخوف والطمع ؛ فموقف الخوف يظهر الجبن والشجاعة ، وموقف الطمع يظهر البخل والشح ، وإثارة الحياة الدنيا ، من غير ذلك .

ولقد ابتلى الله عز وجل بهذين الموقفين بني إسرائيل فسقطوا ؛ ابتلاهم بالخوف عندما أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة فنكلوا وجبنوا ، وقالوا : ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ [المائدة : ٢٢] .

وابتلاهم الله عز وجل بالطمع فحجز الحيتان عنهم إلا يوم السبت ، فما صبروا على شهواتهم ، بل خارت نفوسهم ، وانساقوا مع شهواتهم .
وابتلى الله عز وجل أصحاب محمد ﷺ بالخوف والطمع فنجحوا واستعلوا عليهما ، فقالوا للرسول ﷺ عندما استشارهم في غزوة بدر : « والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك » .

ومدحهم الله عز وجل في أعقاب غزوة أحد بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

وقال عنهم يوم الأحزاب : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٢] ، ثم ابتلاهم الله عز وجل بالدنيا وانفتاحها عليهم ؛ فاستعلوا عليها وزهدوا فيها ورضوا بالكفاف .

إذن ؛ إذا أردنا أن نكشف وجود هذين الداءين في نفوسنا من عدمهما

فلنتفقد هـما عند موقفى الخوف والطمع ، وإن هذا لا يعنى أن نـتـعـمـد مـواطن الخوف والطمع ؛ كلا ، فالمطلوب من المسلم أن يفر بنفسه من مواطن الفتن ؛ لأنه لا يدري ما ستكون حاله حينئذ ، وكما قال الرسول ﷺ : « لا تمنوا لقاء العدو ، وإذا لقيتموهم فاصبروا »^(١) .

وثمة مسألة أخيرة تتعلق بهذا الموضوع ؛ ألا وهي : وقوع بعض الطيبين فى الحب المفرط لنفسه ومصالحها ، مما قد يؤدي به إلى الأنانية والأثرة الممقوتة ، وإن هذه الصفة الذميمة لها نتائج وخيمة ، ومن أبرز هذه النتائج : وقوع صاحبها فى الشح والجبن المشار إليهما سابقاً ، ووقوعه أيضاً فى ضعف الهمة وخور العزيمة ، وضعف النفس ودناءتها ، وإذلالها للغير فى سبيل تحقيق مصلحة ، أو دفع مفسدة عنها .

ومن نتائج حب الذات المفرط أيضاً : العجب ، والغرور ، والأنانية ، وقلة المروءة ، وحب الظهور والمدح ، وإهمال حقوق الأخوة وحقوق الآخرين ، وعدم المسارعة فى خدمة المسلمين وإعانتهم على حوائجهم . . . إلخ .

١٨- نقل الأخبار دون تمحيص وثبت :

لقد ابتلي بهذه الصفة كثير من الطيبين ؛ حيث تراه يحدث بكل ما سمع دون تثبت ولا تمحيص ، وقد يكون ما سمعه لا أصل له ، وقد يكون مزاداً عليه ، وقد ينقله دون فهم ووعى لمراد المتكلم به ، وقد ينقله بعبارة يفهم السامع الآخر منها غير المراد ، ومعلوم ما ينتج من ذلك كله من إذكاء الشائعات ، والوقوع فى الكذب ، وسوء الظن ، والعدوان على الناس بغير حق . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

(١) رواه البخاري فى الجهاد (٣٠٢٥) ، (٣٠٢٦) ، ومسلم فى الجهاد (١٧٤١) ، (١٧٤٢) .

١٩. التصدر للتدريس والجرأة على الفتوى بلا علم :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] . ومع ذلك يوجد في بعض الدعاة ، من لا يتردد في إفتاء الناس عما يسألون ، بشبهة علم أو بغير علم أصلاً ، أو أن يتصدر للتدريس في فن من الفنون قبل أن تجتمع عنده الآلة في ذلك ، كل ذلك سببه مرض في القلب ؛ وهذا المرض هو حب الشهرة والظهور بمظهر العالم الواعي الذي حوى من كل علم بنصيب ، ولا يريد أن يتصف بالجهل ، ومعلوم ما في هذا من الإثم والمنقصة في الدين ، وفي النهاية يجازى بنقيض قصده ؛ وهو استنفاص الناس له ومقتهم له وعدم الثقة به وبعلمه .

٢٠. الغلظة والفظاظة :

يقول الله تعالى : ﴿ ... وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩]

قال سيد قطب رحمه الله حول ظلال هذه الآية :

« فالناس في حاجة إلى كنف رحيم ، وإلى رعاية فائقة ، وإلى بشاشة سمحة ، وإلى ود يسعهم ، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم ... في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ، ولا يحتاج منهم إلى عطاء ، ويحمل همومهم ، ولا يعينهم بهمهم ، ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء ... »

وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ ، وهكذا كانت حياته مع الناس ؛ ما غضب لنفسه قط ، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري ، ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الحياة ، بل أعطاهم كل ما ملكت يده في سماحة

ندية ، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم ، وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه ، نتيجة لما أفاض عليه ﷺ من نفسه الكبيرة الرحبية^(١) اهـ .

هذه هي صفات نبينا محمد ﷺ الذي أمرنا الله عز وجل بالتأسي به ، واقتفاء أثره ، وهي نموذج لكل داعية يريد دعوة الناس إلى الخير ، ويحببهم فيه ، ولكن مع ذلك بعضنا يفرط في هذه الصفات ، ويصدر منه من المواقف والتصرفات ما ينم عن الغلظة ، والفظاظة ، وعدم الحلم ، وسعة الصدر ، متمثلاً في تقطيب الوجه ، وانقباض النفس ، والتعنيف على الأخطاء ، وفقدان الرفق والأناة ، ومعلوم ما ينتج عن ذلك من نفرة الناس وكرههم لمن هذه أخلاقه ، فوق ما في ذلك من الإثم وحرمان الأجر .

قال الرسول ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق »^(٢) .

وثمة شيء آخر يتعلق بهذا الموضوع ألا وهو ما درج عليه بعض المربين والموجهين من الدعاة من القسوة على من معهم ، وتربيتهم على التقليد الأعمى ، وعدم السماح لهم بإبداء آرائهم ، ومعارضتهم ، وقفل باب التشاور معهم .

وهذه الطريقة الخاطئة من التربية ، تفرز لنا دعاة مقلدين متعصبين منفذين لما يقال لهم بدون بصيرة ، وهذه في الحقيقة تربية عبيد لا تربية قادة ، وهذا يخالف قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

* * *

(١) في ظلال القرآن ، عند الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٦) .

الخاتمة

في ختام هذا الموضوع أود التنبيه إلى الملاحظات التالية :

١ - لم أراع - في ترتيب الملاحظات السلوكية في هذا البحث - الأولوية والأهمية ، إلا فيما يتعلق بأمراض القلوب باعتبارها أخطر الأمراض ، فاحتلت الرقم الأول على بقية الملاحظات لأهميتها وشدة خطرها ، أما ما تم سرده بعد ذلك فلم يكن حسب الأهمية ، بل كلما عن اللخاطر ملاحظة دونتها ، وقد يكون ما بعدها أخطر منها ، وهكذا .

٢ - إن ما تم طرحه من المساوئ السلوكية والقلبية هو على سبيل المثال من الواقع العملي ، وليس على سبيل الحصر ، وإلا لورجع كل منا إلى نفسه أو ما يشاهد من حوله لوجد أكثر مما طرح في هذا الموضوع . ولما كان هدف هذه الدراسة هو التنبيه على خطر هذه الأمراض وخطر نسيان النفس في زحمة الدعوة للآخرين - لما كان الأمر كذلك - اكتفيت بذكر نماذج من هذه القوادح ؛ لعلها تكون حافزاً لنا ، لتوجيه الدعوة والتربية إلى أنفسنا في الوقت الذي نوجهها لغيرنا ، كما أرجو أن يكون هذا الموضوع حافزاً لأهل الخير والصلاح وأرباب التربية والتوجيه إلى الاعتناء بمثل هذه المواضع توجيهاً وكتابة ونصحاً .

٣ - لعل مما يلاحظ على هذا الموضوع أنه لم يتطرق للقوادح التصورية والعقدية المنتشرة عند بعض الدعاة ، ولكن تعمدت ترك ذلك ؛ لأن المقصود بهذا البحث الذين يفترض فيهم صحة المعتقد وسلامة المنهج من أهل السنة والجماعة .

وهنا ملاحظة مهمة يحسن طرحها بهذه المناسبة ؛ ألا وهي ضرورة العلم بأن منهج السلف - رحمهم الله تعالى - ليس فكراً مجرداً في الذهن ، وإنما هو عقيدة وسلوك ، وتصور وأخلاق ، ولكن المتأمل في حياتنا معشر أهل السنة يلحظ انفصلاً - ولو بصفة جزئية - بين الجانب العقدي النظري وبين الجانب السلوكي العملي ، انفصلاً بين النظرية والتطبيق .

فقد يلاحظ مثلاً أن هناك داعية عالماً معتقداً لعقيدة السلف في التوحيد بأنواعه ، وفي أصول الاستدلال ، وفي . . . إلخ ؛ ولكن ما إن يختبر في سلوكه إلا ويظهر عليه بعض الأخلاق المشينة المخالفة لعمل السلف .

إذن عندما ننادي بمنهج أهل السنة ومنهج السلف ، فإننا نريد من ذلك منهجهم الشامل في العقيدة وفي السلوك ، ولا نريد جزئية المنهج بأن يحصل الالتزام في الجانب العقدي ويفرط في الجانب السلوكي ، كما لا نريد العكس ؛ بحيث يكون الالتزام بالجانب السلوكي والتفريط في الجانب العقدي ، ولكن نريد الأمرين جميعاً . ولو رجعنا إلى سيرة سلفنا الصالح لوجدناهم خير مثال لهذا المنهج المتكامل .

وإذ كان الأمر كذلك فنحن بحاجة إلى إدراك المقصود بمنهج أهل السنة أو منهج السلف ، وأن المراد منه الجانبان معاً : العقدي والسلوكي ، ونحن بحاجة إلى أن نكون على منهج السلف في السلوك والأخلاق كحرصنا على أن نكون على أثرهم في المعتقد والفهم ، وإذا تم إدراك ذلك فسوف تختفي من حياتنا تلك الصور والمواقف المتناقضة .

نعم ، سوف لا نجد شخصاً هو على عقيدة السلف في توحيد الألوهية والأسماء والصفات ومحاربه البدع ، ومع ذلك يخالف سلوك السلف في حبهم للجماعة وكرههم للفرقة ، أو يخالف سلوك السلف في اقترافه

للظلم، والكذب، والغيبة، والحسد، والشحناء، والتي ليست من أخلاق السلف .

إن هذه الازدواجية في الالتزام بمنهاج السلف سوف تزول أو تقل - إن شاء الله تعالى - بإدراك الأمر المشار إليه آنفاً .

ومن أجل ذلك الأمر - والله أعلم - نجد أن كتابات السلف - رحمهم الله تعالى - في عقيدة أهل السنة والجماعة تشير دائماً إلى بعض الجوانب السلوكية؛ وذلك لأهميتها ، فنرى مثلاً شيخ الإسلام رحمه الله تعالى يذكر ذلك في العقيدة الواسطية ، وهو يسرد أصول أهل السنة ، فقال :

« ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة ، ويرون إقامة الحج والجهاد ، والجمع ، والأعياد ، مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً ، ويحافظون على الجماعات ، ويدينون بالنصيحة للأمة ، ويعتقدون معنى قوله ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً » . وشك بين أصابعه^(١) ، وقوله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر »^(٢) ، ويأمرون بالصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمر القضاء ، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ويعتقدون معنى قوله ﷺ : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »^(٣) ويندبون إلى أن تصل من قطعك ، وتعطي من

(١) رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥).

(٢) رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦).

(٣) رواه أبو داود في السنة (٤٦٨٢)، والترمذي في الرضاع (١١٦٢)، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٨٤).

حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، ويأمرون ببر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل ، والرفق بالملوك ، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق ، ويأمرون بمعالي الأخلاق ، وينهون عن سفاسفها » اهـ .

رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية ، فلقد كان مدركاً للترابط بين العقيدة والأخلاق ، وما إirاده لهذه الأخلاقيات في كتاب العقيدة الواسطية إلا أكبر دليل على أن الالتزام بمنهج السلف رحمهم الله تعالى يعني أن تتمثل في أهله عقيدة السلف وأخلاقهم ، وبقدر ما ينقص من هذه الجوانب سواء في المعتقد أو الأخلاق بقدر ما يحصل النقص في الالتزام بهذا المنهاج العظيم الكريم ، الذي من سار عليه نجا وأفلاح ، ومن تركه خاب وخسر .

نسأل الله عز وجل أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، كما نسأله سبحانه أن يهدينا لأحسن الأخلاق ؛ لا يهدي لأحسنها إلا هو ، وأن يصرف عنا سيئها ؛ لا يصرف عنا سيئها إلا هو . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه .